وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

سلسلة أضواء
على السنة النبوية
(٥)

خواطر وتأملات في السيرة النبوية الشريفة

تأليف
الدكتور/ محمود محمد عمارة

مراجعة
الدكتور/ محمد الطيب النجار

القاهرة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

«قرآن کریم»

إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ

«حدیث شریف»

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

رسالات الأنبياء الى الناس تالدة خالدة تمتد جـذورها الى الانسان الأول وهو آدم أبو البشر وتنتهى فروعها بانتهاء هذا الجنس البشرى وقيام الناس لرب العالمين .

واذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسـلم هو خاتم الرسل والأنبياء فان رسالته لا تزال متصلة الى يوم الناس هـذا يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالى الأجيال والقرون .

ولا ريب أن سيرة هذا النبى العظيم انما هى الأساس الكامل لدعوته العظيمة التى أضاءت المشارق والمغارب ومـلأت العـالم بالهدى والنور ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السـيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للانسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلا بعد جيل ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور فى كتـب يضيق بها الحصر والتعداد وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات الى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غـير الأرض والسماوات .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو خواطر كريمة فى بعض الجوانب من السيرة النبوية المباركة وتأملات دقيقة فى طائفة من الأحداث التى مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم أو مر هو بها . ومحاولة جادة لاستخلاص العبر والعظات من هذه الأحداث الخالدة المجـــيدة ..

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته كالشجرة الطيبة التى ثبتت أصولها وانبسطت ظلالها وآتت أكلها كل حـــين باذن ربها ، بل كالمشكاة المنيرة يتالق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى بها الله من يشاء من عباده ، فلمـــا قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضـــع جسده الطاهر فى باطن الأرض رجع الناس بسيرته نورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشادا ما دامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله)) .

وهذه الخواطر الكريمة والتأملات الدقيقة التى سجلها العالم الجليل الدكتور محمود محمد عمارة الأستاذ بكلية أصـــول الدين والدعوة بجامعة الأزهر ، هذه الخواطر والتأملات تتركز حـــول العبر المستفادة من أحداث السيرة النبوية وتهدف الى تصـــوير تلك الأحداث بأسلوب رقيق وبيان واضح يكشف النقاب عمـــا وراءها من أسرار تؤنس السارين فى بيداء الحياة وتضع أقـــدامهم على الطريق السوى وتخرجهم من الظلمات الى النور ، وســـوف يجد القارىء فى هذه الخواطر اجابة شافية لمـــا يجيش فى نفسه من تساؤلات ، وسوف يجد كذلك ـــ من الطمانينة القلبية ما يدفعه الى القدوة الصالحة والتاسى بالأدب المحمدى والسلوك الاسلامى.

وهاكم بعض أمثلة من هذه الخواطر والتأملات ..

فحينما يتحدث عن رعى الرسول للغنم يقول : « ان رعى الغنم كسب شريف وتربية نفسية وترويض على العطف على الضعيف ولقد أتاح رعى الغنم لمحمد صلى الله عليه وسلم فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعقلية وكان ذلك تأكيدا لاستقلال ذاته واصراره على أن يأكل من عمل يده وكان الى جوار ذلك تعويدا على الفضائل التى تعينه على حسن العبادة ومنها الصبر والأناة والرأفة ورعاية الضعيف ، ومعنى ذلك أهمية رعى الغنم فى تسليح الانسان بقيم لابد منها فى سياسة الأمم » .

وحينما يتحدث عن خلوة محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء يقول : كانت خلوته صلى الله عليه وسلم فى غار حراء طرفا من تدبير الله له وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل ارض وضجة الحياة .. وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجهة الأرض وتعديل خط التاريخ ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة كى ينطلق فى هذه العزلة مع روح الوجود ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون .. وعندما جاءه الوحى وهو فى غار حراء ولد الانسان فى هذه اللحظة وثبتت صلاحيته ليكون رسولا نبيا بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الانسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للملك دون الانسان .

وحينما يتحدث عن الهجرة النبوية نراه يقول : « ان غريزة حب الوطن من الغرائز الناشئة فى كيان الانسان واذا كان حب البقاء فطرة فى طبيعة الانسان فان حب الوطن أعمق جذورا وأوسع مدى . وكما قال القائل :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

واذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة فان وطن الروح أعز وأغلى واذا اصطرعت فى النفوس محبة المكان ومسئولية الايمان فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال ولن يتردد أبدا فى هجرة وطنه انتصارا لمبادئه وحفاظا على دينه وايمانه » .

وهكذا كانت الهجرة امتحانا عسيرا لأقدار الرجال ، وترجمة عملية يتثبت فيها المسلم انه نجح فى الاختبار العملى بعد نجاحه فى الاختبار النظرى لأن حب الوطن فطرة فى نفوس البشر . والذين ينتصرون على هذه الفطرة ايثارا لوطن الروح أن يبقى ويزدهر . أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

وقد أثبت المهاجرون الأولون أن الايمان الناضج يحول البشر الى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة ، ولم تكن هجرة احدهم كانتقال موظف من بلد قريب الى بلد ناء بعيد ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة الى أرض مخصبة ، ولكنها اكراه رجل آمن فى سربه ممتد الجذور فى مكانه على اهدار مصالحه والتضحية بأمواله والسير الى مستقبل مبهم لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل

ومشاكل وهموم وأحزان . ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل « مغامر طياش فكيف وهو ينطلق فى أرض الله الواسعة يحمل أهله وولده وهو بذلك رضى الضمير مطمئن القلب بالايمان» ؟

وهكذا يمضى العالم الداعية فى خواطره وتأملاته مشرق الأسلوب دقيق التصوير أمينا فى النقل فهو اذ ينقل أحيانا بعض الأفكار التى سبقه اليها بعض الباحثين يرد كل كلمة الى صاحبها مشيرا الى ذلك فى ذيول الصفحات .

وبعد فسوف تجد أيها القارىء الكريم فى ثنايا هذا الكتاب ان شاء الله ما يشفى صدرك ويسمو بروحك ويهيب بك الى أن تتمثل أمام عينيك وفى نفسك قول الحق سبحانه وتعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

هذا . ومن الله العون وبه التوفيق .

الدكتور محمد الطيب النجار
المشرف العام على مركز السيرة والسنة

بين يدى السيرة النبوية
تمهيد ومقدمات

انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس الى تلخيص عناصر العظمة فى امور اربعـــة :

١ ــ الأخـــلاق الرفيعة التى يتميز بها العظيم .

٢ ــ سمو المبادىء التى يدعو اليهـــا .

٣ ــ قدرته على التاثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه .

٤ ــ نجاحه فى صياغة جيل يتمثل مبادئه .

ويتحمـــل الأمانة من بعـــده .

* * *

والمتأمل فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج بيقين جازم أن رسولنا الكريم ــ من خلال استقراء سيرته العطرة ــ قد استجمع هذه الخصائص جميعا ..

وعـــلى اوفى معانيها ..

لقد التقى فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق فى نفـــوس العظماء من سمات ..

فاذا رحت تتأمل شخصيته الفذة بهرتك اضواؤها حتى لكأنك منها فى بستان مورق مثمر .. فيه من كل زوج بهيج .

واذا شهر زعيم أو قائد بمقدرة فائقة فى ناحية فانك تراه فى ناحية أخرى ساقطا فى القاع ..

وهذا نابليون .. الذى ذاعت بطولته .. ونسجت حولهـــا الأساطير (لقد أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها عـــلى أن يكونوا « قوادين » له . يوصلونه الى الفتاة البولونية التى أحب.

وزاد على ذلك فاضطر أباها على أن يلزمها الاثم الذى اراده منها . وجعل استقلال « بولونيا » رهنا بتحقيق هـــذه الرغـــبة النجسة الفاجرة)(١) .

من أجل ذلك .. كان من الظلم لمحمد صلى الله عليه وسلم أن نقيسه بواحد من هؤلاء العظماء ..

ولقد حاول كتاب مخلصون أن يرفعوا محمدا الى السموات العـــلا فقالوا :

هو عبقـــرى . .

او بطل الأبطال ..

---

(١) تعريف عام بدين الاسلام للشيخ على الطنطاوى .

ولكن قصارى هذا الوصف كما أشار بعض الباحثين أنه واحد من أفراد قلائل ..

وربما كان ذلك مندوحة الى التشكيك فى تفرد رسالته بالهيمنة مادام هناك مثله عباقرة .. وابطال .. لهم مذاهب . ولهم مبادىء وهيهات :

اذا كان انل الواد يجمع بيننا
فغير خفى شيحه من خزامه !

والحق انه : سماء .. ما طاولتها سماء :

(فان من العظماء من كان عظيم العقل . ولكنه فقير فى العاطفة . وفى البيان . ومن كان بليغ القول وثاب الخيال . ولكنه عادى الفكر . ومن برع فى الادارة او القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت اخلاق الفجار ومحمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذى جمع العظمة من اطرافها) .

ولا شك أن محمدا (ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم الى ألفاظ الأذان .

ولا اكنان حبه يكون بتأليف مدائح . أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون . ويتأوهون . أو لا يتأوهون . فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين .

وما جنح المسلمون الى هذه التعابير — فى الابانة عن تعلقهم

بنبيهم ـ الا يوم أن تركوا اللباب المليء واعياهم حمله . فاكتفوا بالمظاهر والأشكال .

ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الاسلام فقد افتنوا فى اختلاق صور أخرى . ولا عليهم .. فهى لن تكلفهم جهدا ينكصون عنه .

ان الجهد الذى يتطلب العزمات هو الاستمساك باللباب المهجور . والعودة الى جوهر الدين ذاته :

فخير من الاستماع الى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ان ينهض المرء الى تقويم نفسه . واصلاح شأنه حتى يكون قريبا من سنن محمد صلى الله عليه وسلم : فى معاشه ومعاده .. وحربه وسلمه . وعلمه وعمله . وعاداته وعباداته .

ان المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره .. ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره . لا يغنى عنه ابدا ان يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة وانما هى :

مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيها . ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بها .

فأى حيف فى عرض هذه السيرة . واى خلط فى سرد أحداثها اساءة بالغة الى حقيقة الايمان نفسه(٢) .

* * *

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ٥/٤ .

لقـــد نجانا الحـــق سبحانه مما وقع فيه أهل الأديان الذين صوروا انبياء تماثيل .. وذلك بسننه صلى الله عليه وسلم التى تغنينا عن التمثيل .. لاننا بها نتمثله صلى الله عليه وسلم بـــكل اقواله واعماله :

(أ) ففى رحابها كل التفاصيل كأنك تشاهده .

(ب) ثم أنها ميزان لسير الحياة والأحداث .

(ج) وهى كذلك زاد من القوة يمنحنا القدرة على مواجهـــة الفساد بالاصلاح . والضعف بالقوة .

واذن .. فدراسة السنة دراسة الآملين العاملين حيـــاة للأمة . واستمرار لهـــا .

مراحـــل الســـيرة :

يقول ابن القيم :

العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار . فهو مسافـــر فيها الى ربه .

ومدة سفره هى عمره الذى كتب له .

فالعمر هو مدة سفر الانسان فى هذه الدار الى ربه .

ثم جعلت الأيام والليالى مراحل سفره :

فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل . فلا يزال يطويها مرحـــلة بعـــد مرحلة . حتى ينتهى السفر .

والحديث عن السيرة النبوية يمر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الاعداد الالهى . تمهيدا لنزول الرسالة .

المرحلة الثانية : من البعثة الى الهجرة .

المرحلة الثالثة : من الهجرة الى أن انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .

مرحلة الاعداد :

الله أعلم .

حيث يجعل رسالته .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٣)

جاء فى سبب نزول الآية :

ان ابا جهل قال : زاحمنا بنى مناف فى الشرف . حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه . والله لا نرضى بربه الا ان يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت « **الله اعلم حيث يجعل رسالته** » وهو رد عليهم (بأن النبوة ليست بالنسب والمال . وانما هى

---

(٣) سورة الانعام آية ١٢٤

بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده . فيجتبى لرسالته من علم انه يصلح لها . وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه(٤) .

وقد جعلها سبحانه حيث علم .
فاختار لها الزمان .
واختار لها المكان .

كما اختار لها سبحانه وتعالى الأمة التى سوف تتحمل مسئولياتها الكبار .

ثم اصطفى من هذه الأمة رجلا تجمع فيه كل ما تفردت به من صفاء الفطرة . وقوة الارادة . ونقاء الخلق .

* * *

الزمان المناسب :

أما مناسبة الزمان : فقد كان الأمر على ما يقول الحق سبحانه .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٥)

---

(٤) البيضاوى .
(٥) سورة الروم آية ٤١

لقد طم الفساد — حينئذ وعم — حتى صار الخلق عن الحق فى فكر ذاهل . وشغل شاغل .

لقد انحلت عرى الشخصية الانسانية . وماتت عناصر القوة فيها . بل لم يعد الانسان حينئذ مستعدا ليعيش حياته حتى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى .

كان الحاكم — فى الأمم الأجنبية — اذا احتجم . أو فصد له . أو تناول دواء .. كان ينادى فى الناس :

ألا يمارس انسان من رجال البلاط .. أو سكان العاصمة عملا . ويكفون عن كل صناعة أو ممارسة نشاط . واذا عطس(٦) فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له(٧) .

فأنظر كيف يتوقف دولاب العمل من أجل وعكة تلم برجل يحاول أن يجعل من ذاته محورا يدور فى فلكه الكون !

واذن فقد كانت السلبية هى القاسم المشترك فى هذه الأمم الأجنبية :

(اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان :

لا يهيجهم ظلم . ولا يستهويهم حق . ولا تملكهم فكرة . أو دعوة تستحوذ عليهم استحواذا يتنافسون فيه أنفسهم . ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم(٨) .

---

(٦) عطس من باب ضرب وفى رواية من باب قتل . ومعطس وزان مجلس : الأنف .

(٧) عن السيرة النبوية للندوى ٤٨ : ٤٩

(٨) المرجع السابق ٤٧ .

البيئة المناسبة :

فى هذا الوقت بالذات يهىء الله تعالى الأمة العربية لتتحمل مسئولية الانقاذ .. انقاذ العالم بما حباها من خصائص صارت بها أسلحة القدر التى تقوض بها بنيان الظلم . وأقام على سواعدها صرح العدل والنظام .

وبهذا كانت الجزيرة العربية خير مكان .. وكان العرب هم الصفوة الصالحين لعمارة الدنيا . واصلاح ما فسد منها .

* * *

الموقع الجغرافى :

لقد احتلت الجزيرة العربية على سطح الكرة الأرضية موقعا جغرافيـــا متميزا . يجعلها جديرة بأن تكون مركزا لدعـــوة تعم العالم . وتخاطب الأمم .

ومن هذا الموقع الفريد تصبح مركز الدائرة على مستوى العالم كله . ومن ثم يشع نورها فى كل زواياه ومساربه . يعينها على ذلك ما يتمتع به ذلك الموقع الوسط من بعد عن التأثر بأى من الحضارات أو الديانات المحيطة بها . فكان ذلك فضلا من الحق سبحانه وتعالى : لتمهيد جو الحياة . وصـــهر العوامل المقومة لابراز الحدث الجلل الذى يغير وجه التاريخ تغييرا اصيلا شاملا . وهذه مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدد الانسانى من أعالى الذرى الى وادى الوجود الواقعى .

وهى ايضـــا مرحلـــة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة . التى جاءت لتصحح اغاليط الحياة فى